أبغض الحلال ...

قصة بقلم عادل آدم

البقاء في الحجرة القبلية بمنزل الشيخ عبدالله في مثل هذا الوقت من شهر يوليو ، كان يعد ضربا من الجنون أو نوعا من الانتحار البطيء ، فالشمس تبدو وكأن لا عمل لها الا املاء جوانب الحجرة باشعتها الملتهبة حتى أن القلة التي اخذها الشيخ معه في الحجرة ، جفت بعد وقت قصير واصبحت وكأنها خارجة لتوها من احدى فمائن صنع الفلل .

وكان الشيخ مستلقيا على بلاط الحجرة البارد بعض الشيء، يلتمس اي جزء بارد يلتصق به وكانت عيناه مثبتتين فوق نقطة معينة من الحائط .. كان أحد الفئران قد خرج من الشق الموجود في الحائط ـ والذي يجب عليه ان يصلحه ـ وقد اخذ يتمشى على الحائط حتى بدا للشيخ كفتاة خرجت الى الشرفة تلتمس بعض الهواء في هذا اليوم الخانق .

والذي جعل الشيخ يلجأ الى هذه الحجرة التي تشبه جهنم ، هو انه لم يكن يستطيع ان يلجأ الى حجرة اخرى ، فزوجته لا تسمح لاحد مطلقا بدخول حجرة الضيوف الا للضرورة القصوى .. أي حضور ضيف .. واما فيما عدا ذلك فالويل لمن يقترب منها .. والا فهل تفرح به وبأولاده اذا بلي الاثاث أو اتسخ .. وهو أيضا لا يمكنه أن يلجأ الى حجرة النوم لان زوجته واولاده لا يفارقونها علاوة على انه كان يريد ان ينفرد بنفسه والمصيبة أن هاتين الحجرتين اللتين لا يمكنه دخولهما بحريتان وجوهما الان غالبا ما يكون معتدلا ان لم يكن جميلا بالفعل .. وزفر الشيخ بشدة كآلة بخارية تطرد بخارها المحبوس ثم اخذ يستغفر بعد ذلك لمدة طويلة وكأنه ارتكب جريمة هائلة ..

وانفتح الباب فجأة ودخل ابنه الصغير صارخ ـ بابا .. اعطني قرشا !

وشعر الشيخ بعيب .. هذه المرأة اللعينة تسلط عليه الاولاد .. وقال وهو يشد بيده للخارج في حركة حانقة ـ اذهب واطلب من أمك .. ولم يتحرك الولد الوقح وقال باصرار وعيناه مليئتان باتهام واضح وبنفاد صبر ـ هي قالت .. خذ من أبيك ..

وكان العرق ينسال بغزارة من وجه الشيخ عبدالله وسقطت قطرة كبيرة من عينه فلسعته بشدة وضايقه أنه كان يمكن أن يجففها قبل أن تصل الى عينه لولا دخول ولده عليه فصرخ فيه .. فخرج الولد مسرعا حتى كاد ينكفيء على وجهه .

وأخذ يجفف العرق بمنديله المحلاوي الكبير والذي اشتراه ايام العز وعاد يزفر بشدة ثم يستغفر باخلاص وهو يتمعن الموقف السيء الذي آل اليه حاله .. والسبب في ذلك هو الاستاذ بركات الذي لم يحل له الموت الا الآن ..

وصعق الشيخ حينما اتجه تفكيره هذا الاتجاه حتى انه انتفض جالسا وكأن شخصا عظيما دخل عليه الغرفة وأخذ يطلب من الله المغفرة بالحاح غريب .. غير أنه لم يستطع أن يمنع تفكيره من الانحراف الى موت الاستاذ بركات الذي ضيق عليه الخناق بصورة قاسية ..

فالشيخ هو مأذون الحي .. ومعنى موت انسان من حي مثل هذا الحي الفقير الذي يكسنه ، ان يلتزم الجميع الحداد حتى تمر شهور على الوفاة .. وأن تؤجل الافراح والليالي الى ما شاء الله .. وان يموت المأذون من الجوع وأن يتعرض للسان زوجته السام كلسان أفعى وهي تؤنبه لضيق رزقه وكأنه هو الذي يرزق نفسه ، هذه المرأة الكافرة الجاهلة .

وأخذ يبحث عن حل حتى أنه وجد من العدل والانصاف أن تؤمن شركات التامين على أفراح الناس بمعنى أنه يجب أن يعوض المأذون عن كل وفاة تحدث في منطقته ... وأعجبته الفكرة فأخذ يعدل فيها ويحور ثم يقترح أن يكون التعويض متفاوتا بمعنى أن الاطفال والعجائز يسكون التعويض عنهم بسيطا .. اما الشباب.. فيكون التعويض عنهم كبيرا لانهم يخربون بيته تماما ... وهذا هو المثال الحي .. أو الميت بمعنى أصح.. الاستاذ بركات .. فالشيخ لا يذكر أنه عقد قرانا واحدا بعد وفاة الاستاذ .. والحق أن الشيخ عبدالله حزن حزنا شديدا لوفاة الرجل فقد كان من معارفه ولكنه ـ وهذا ما يحنق الشيخ ـ لا يستطيع أن يعرف بطريقة قاطعة .. هل حزن لوفاة الرجل ؟ .. أو أن حزنه كان على رزقه الذي انقطع حتى انه شعر بالخزي والخجل حين واجه نفسه بالحقيقة .

ورغم ان زوجته الشحيحة المليئة باللحم ذهبت الى دار الاستاذ بركات يوم مات وشاركت أهله في اللطم والندب والعويل لمدة ثلاثة أيام متوالية ثم في أيام الخميس ... رغم ذلك فانها لا تقدر موقفه ولا تهتم الا بما يدخل معدتها من طعام .. وأولاده صغار لا يفهمون ولا يقدرون .

وضاق صدره فخلع الصديري الذي يرتديه وكوره ووضعه تحت رأسه المنهك من ثقل الافكار التي تعربد داخله .. كان الشيخ عبدالله يقول في نفسه : « لو عقدت قران أحد الملوك .. فلا بد أن اشتري جهاز تكييف لهذه الحجرة اللعينة » . ولكن سرعان ما وجد الفكرة سخيفة فقد اكتشف أنه من الارخص أن ينتقل الى منزل متسع جميل على شاطيء النيل تهب عليه النسائم العليلة ليل نهار .. ثم عاد فتذكر أن في منزله هذا حجرات بحرية لا يستطيع أن يدخلها فايقن أن المشكلة مشكلته هو وزوجته ليس الا ..

وكان المسكين كلما حاول أن يجد حلا معقولا لمشكلته صدمته آلاف العقبات التي يقف ذهنه أمامها مشلولا كما يقف ابنه أمام مسائل الحساب لذلك سرعان ما اتجه تفكيره الى وجهات خيالية لا توجد حلولا عملية لحالته ولكنها كانت تخدره بعض الشيء كنسمة منعشة فيكاد ينسى نفسه وينسى العرق الذي جعل ملابسه تلتصق بجسده بشكل يضايقه .

وعاد تفكيره الى حكاية الملك .. ولكن لماذا يستدعيه هذا الملك بالذات ؟ .. بل كيف يعرف أن هناك شيئا اسمه الشيخ عبدالله ؟ . ولم يمكنه أن يعرف الطريقة التي سيقابله بها هذا الملك فاكتفى بأن يعزوها للصدفة .. وأيضا لم يستطع رغم تفكيره العميق الجاد ومحاولاته المتعددة ان يتخيل كيف تكون هذه الصدفة .. ثم يئس من البحث فترك هذه المشكلة حتى يختار شخص هذا الملك أولا .. ففوجيء لدهشته بأن كل من يعرفهم اما متزوجون او غير مسلمين .. احس المسكين بانه يختنق وهو يرى متنفسه الوحيد يكاد يطبق فوق صدره .. فصاح بحنق وكأنه يبذل المحاولة الاخيرة لانقاذ نفسه ـ اذا يطلق .. ليس من الضروري أن يكون زواجا ..

وهجم الرجل .. وأحس بمدى الجرم الذي وقع فيه وبشاعة الخطأ

الذي تورط فيه لتفكيره الشائن وتأكد لديه أنه لا بد وارد على النار لانه خان ضميره ودينه .. ثم زاد ذعره حين فكر في أن النار ستكون أشد وطأة من هذه الحجرة اللعينة .. وعاد يستغفر ويطلب الرحمة رغم أنه كان قد انتهى بصورة لا نقاش فيها الى أنه ليس ثمة حل آخر ..

وفتح الباب فجأة .. الابواب في هذا المنزل دائما تفتح فجأة .. وبدت في فتحة الباب زوجته بهيكلها الضخم وصاحت متسائلة بحدة : « نائم ؟ ! » فتحرك في رقدته ليشعرها بيقظته بدون ان يتكلم فقالت بصوت رتيب : « احدهم يريدك » وتركت الغرفة .. واعتدل هو كالمنتفض .. هل تكون المعجزة حدثت .. واسرع خارجا من الجحيم وانعطف الى دورة المياه فبلل وجهه ويديه بقليل من الماء واسرع الى حجرة النوم ليرتدي ملابسه على عجل . وساعد جو الغرفة اللطيف على امتلاك أعصابه وان كان حنقه على زوجته قد زاد .. وما ان انتهى من ارتداء ملابسه حتى كان يبدو اقدر على التفكير والكلام ، وامسك مسبحته الكهرمان التي احضرها له الاستاذ بركات وكأنه يعتذر له وسارع الى حجرة الضيوف .. طرق الباب بهدوء ودخل بوقار وعيناه فوق وجه الغريب الذي كان قد ثبت نظراته في الارض .. وما ان رفع الرجل وجهه حتى ريع الشيخ عبدالله وقال في نفسه « وايم الحق ، ليس هذا وجه انسان سعيد ، ولا بد أن التعس يريد أن يطلق زوجته أو شيء من هذا القبيل » .

وألقى على الرجل التحية واقترب .. وشد على يده مسلما وكأنه يستنجد به فرد الغريب التحية باقتضاب زاد من قلق الشيخ .. وسادت فترة صمت كانت قصيرة ولكنها مشحونة بالتوتر ... تبادلا فيها النظرات ثم سرح كل منهما بعيدا عن الاخر للحظات وعاد الشيخ بسرعة وقال : أهلا وسهلا .

فاعتدل الغريب في جلسته وقد فهم أن هذا الترحيب الاخير لحمله على الكلام فقال على الفور :

ـ يا سيدنا .. أريد أن أطلق زوجتي ...

صدم الشيخ وانهارت آماله كلها وانقطع الخيط الواهي الذي كان يتشبث به وتماسك بعض الشيء .. ـ طلاق .. لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ... ولكن لماذا يا بني ؟

دهش الغريب لبرهة ثم قال : لا داعي للسؤال ... طلقها من فضلك .

ـ أجل يا بني ، ولكني أريد أن أعرف السبب .

ـ يا سيدي عليك أن تخلصنا فقط ولا داعي للتحقيقات !

ففضب الشيخ قليلا وهو يقول ـ لا يا بني .. ان مهمتي أن أوفق بينكما قبل كل شيء .. ولو فشلت سيتم الطلاق ..

واحتد الغريب وقد شعر بأن الشيخ يتدخل فيما لا يعنيه ...

ـ لا فائدة من اضاعة وقتك ووقتي ... أنا مصمم على الطلاق ..

فابتسم الشيخ .. كم مر عليه من أمثال هذا الشاب وقال :

ـ نبحث الامر بهدوء .. لن تخسر شيئا ... الطلاق ليس أمرا سهلا لهذه الدرجة ..

والطلاق هو أكبر الكبائر في نظر الشيخ عبدالله وقد كان يفخر باستمرار بأنه يكاد يكون المأذون الوحيد الذي لم يفصم علاقة حللها الله .. وأن ما من رجل قصده لطلاق الا أعاده لزوجته نادما مستغفرا .. ولكن هذه المرة ... كان الامر يختلف ، ولم يكن يدري كيف يمكن للانسان ان يكون له رأي مخالف عن رأي سابق اتخذه لمجرد ان جيبه خاو .. كان قد مضى أكثر من شهر على وفاة الاستاذ بركات ولم يعقد عقدا واحدا .. ونفدت النقود ونفد خزين البيت واصبحت الحال لا تسر عدوا ولا حبيبا .. ماذا .. ماذا لو قبل هذه المرة ؟ ولكن هذا الغر الاحمق يعتقد أنه يكفي أن يطلب الطلاق حتى يسرع الشيخ لتنفيذ رغبته .. هذا غير ممكن ... واخذ يتصور شكل زوجة الشاب ... شابة حلوة وادعة دقيقة الجسم على عكس زوجته الضخمة الكبيرة وشعر بحزن يفزوه حين فكر في الزوجة الشابة التي تشاجر معها زوجها وخرج مسرعا لكي يطلقها .. حزن من أجلها حزنا يكاد يعادل حزنه من أجل أولاده الجياع .. ومن أجل كرامته المهدورة ..

وحين جاءت القهوة كان الشيخ عبدالله والرجل قد غرقا في مناقشات طويلة .. وقد نسي الشيخ كل شيء الا أن بيده أن يمنع منزلا سعيدا أن يتهدم .

وكان جو الغرفة رائعا .. وكانت السيجارة التي ناولها له الشاب قد هدأت اعصابه تماما .. وأخذا يرشفان القهوة ويتبادلان الكلام ... وكان الشاب قد استراح لحديث الشيخ ـ رغم نفوره السابق منه ـ فأخذ يحدثه بمتاعبه والمشاكل العديدة التي تخلقها زوجته من لا شيء رغم حبه لها وحبها له ... وأحس الشيخ بحب مفاجيء لهذا الغريب الذي ذكره بشبابه فوجد نفسه يحكي عن متاعبه ، ويروي له عن شكاسة زوجته اللعينة التي تبدو كالرجل ثم وجد نفسه يذكر ـ بالرغم من أنه خجل بعد ذلك ـ كيف عرفها وكيف أحبها وكيف تزوجا .. « حقا كيف » وغرق في مشاعر لطيفة .. وأخذ يقص على الغريب بعض الطرائف التي وقعت لها .. ضحك لها الشاب حتى أن الشيخ أعجب لقدرته على اضحاك الناس .. ثم تحدثا عن موجة الحر .. وقال الشاب أن أحد جيرانهم اغمي عليه من شدة الحر .. وذكر أن قلة الحدائق تزيد من قسوة الحر . فلعن الشيخ الحر وهو يؤكد للشاب ـ ولنفسه ـ أن الحر هو سبب خلافه مع زوجته ، واقترح على الشاب أن يشتري لزوجته هدية ثم يخرجان كي يترضاها ... وكان أحد البائعين يصرخ بشدة تحت النافذة فقطنا للوقت الذي انقضى من جلستهما فابتسما بدون كلام وحين هم الغريب بالانصراف شد على يد الشيخ عبدالله وهو في غاية السرور كمن أنقذ في آخر لحظة من السقوط في هوة مظلمة ... حتى كاد الشيخ يبكي من فرط التأثر والانفعال وودعه حتى الباب الخارجي وهو ينصحه بعدم الاستسلام للغضب والحر ..

وأغلق الباب وراءه وظل مكانه وهو لا يستطيع منع نفسه من الابتسام .. وشعر بحركة خلفه فالتفت ليواجه زوجته .. كانت تقف متمترة تنتظر ما يقول .. فارخى نظراته الى الارض وابتسم قائلا :

ـ كان يريد أن يطلق زوجته ... انه شاب طيب و ...

ولما وجد وجهها لايبدو عليه أي تعبير وعيناها تنظران اليه ببرود قاتل ، تركها وغادر الحجرة ... ودخل الى الحجرة القبلية .. جحيمه الخاص ، وخلع ملابسه بهدوء ورقد على الارض الباردة بعض الشيء ولكنه هذه المرة كان هادئا تماما بل سعيدا ، حتى أنه نام .

القاهرة

عادل آدم

فندق نيو بالاس

ادارة : فتحي نوفل

وسط راقت
خدمة ممتازة
مياه ساخنة
تليفونات بالغرف

جناح خاص
للعائلات
أسعار معتدلة
مصعدات حديثان

١٧ شارع سليمان الحلبي
(دوبريه سابقا) القاهرة
خلف سينما الوكن بعمار الدين

ت : ٤٥٩٣٦
س ت : ٧٩٧٩١

New Palace Hotel 17 Sh. Soliman el Halaby
Telephone 45936 - Cairo